

المحاضرة الخامسة: معركة وادي المخازن 1578م

كانت السياسية البرتغالية في عهد جان الثالث 1521-1557 م قد دارت ظهرها للمغرب وشؤونه وانصرفت في لاستغلال البرازيل حيث حدث تحول في السياسة البرتغالية حين تسلم الدوق دون سبستيان العرش 1557/1578 الذي أولى المسائل المغربية اهتماما كبيرا ويعود هذا التأثير للوسط الذي كان يعيش فيه سبستيان وهو وسط جزويبيتي متعصب حاول ان يدخل في نفس سبستيان انه بطل الكاثوليكية في صراعها ضد البروتستنتية والإسلام

كان سبستيان يحلم بمشاريع توسعية كبيرة في المغرب و في سنة 1573 حصل اتفاق مع فيليب الثاني بتدعيم البابا على تجديد لمدة خمسة أعوام للمنشور البابوي المسمى الحرب الصليبية المقدسة الذي امن له عائدات وفيرة وقد حاول سبستيان اشراك اسبانيا في غزو المغرب وفي سنة 1577 اجتمع مع فيليب الثاني في غوادلوب وحصل على امداده بخمسة عشر الف اسباني وخمسين سفينة هذا اذا لم تجبره الظروف على الاحتفاظ بهذه القوات للدفاع على إيطاليا ضد هجوم العثمانيين و الواقع ان فيليب الثاني كان قد صرف انظاره عن افريقيا و لم يكن متحمسا لمشاريع البرتغال و قد سمحت له ثورة إقليم الباسك للتنصل رمن وعده و سعى اكثر من مرة لتغيير فكرة و ثني سبستيان عن عزمه على مهاجمة المغرب و فشل في ذلك و ازدادت حماسة سبستيان لتنفيذ مشروعه حين لجا اليه المتوكل و ابدى هذا الأخير استعداداه لتقديم تنازلات واسعة وصلت الى حد التنازل عن كل الساحل المغربي المطل على المحيط الأطلسي مع ست فراسخ الى الداخل و تسليم تطوان و القصر الكبير و تسهيل التبشير المسيحي في المغرب و اعترافه بالتبعية لملك البرتغال و قدم له اصيلا كسلفة على المعاهدة

ساد في أواسط الراي العام البرتغالي تياران تيار متطرف متحمس لمشروع الحملة والآخر معارض وعلى راسه الكاردينال هنري عم الملك الذي كان لا يثق بالمتوكل ويعتقد ان الشقاق بين المتوكل وعمه عبد الملك شقاق ظاهري وان عروض المتوكل ليست الا فخا يهدف من خلاله الى إيقاع بملك البرتغال وجيشه في كمين

كان عبد الملك على علم بالاستعدادات البرتغالية والاتصالات الجارية بين المتوكل وسبستيان وحاول إيقاف الغزو واحباط التعاون بين خصميه بالطرق الدبلوماسية فقدم عرضا بتوسيع منطقة الاحتلال البرتغالي وتقديم سنناكروز في الجنوب لكن هذا العرض لم يلقى استجابة فقد كانت استعدادات الحملة وتحركت قوات الغزو الى اصيلا

كانت الحملة البرتغالية حملة صليبية حقيقية فقد أسهم الى جانب البرتغاليين اسبان و ايطاليون و المان و باركها البابا و قدم لها مساعدات مادية رو معنوية وعسكرية وكان الجيش البرتغالي مزودا بأسلحة نارية حديثة متفوقا بالمدفعية ضعيف من حيث الفرسان و كان الحماس الديني طاغ على المشاركين في الحملة .

ارتكب سبستيان أخطاء قاتلة :

- لم يستمع سبستيان لنصيحة المتوكل باحتلال تطوان والعرائش كي يستطيع المتوكل حشد قبائل هذه المناطق الى جانب البرتغاليون

- كان تحرك البرتغاليين بطيئا بسبب كثرة العربات ووعورة الطرق المغربية مما اعطى السعديين الوقت لإكمال استعداداتهم

- نجح عبد الملك في استدراج سبستيان الى الداخل مبتعدا عن حماية الاسطول واتخاذ موقعا غير ملائما حين اتجه الى معبر بين نهر اللوكس وأحد روافده وادي المخازن في منطقة مستنقعات دون ان يأخذ حذره ان مستوى النهر في هذه المنطقة يتغير تغيرا كبير في حالة المد.

- اتخذ الجيش البرتغالي وضعا قتاليا لا يسمح بالمناورة واعتمد نظام المربعات و أحاط جناحيه بالعربات و جعل مؤخرته تستند الى وادي المخازن و مستنقعاته مما تحول دون التراجع الى الوراء .

كان الجيش المغربي يملك مدفعية اقل و فرسانا اكثر و اتخذ وضعا قتاليا ممتازا فقد انتظم الجيش على شكل هلال : الخيالة في الجناحين و المشاة في الوسط تغطيها المدفعية من الخلف و اتخذ مواقع تسهل المناورة و الحركة و كان الحماس الديني و الوطني طاغ على المحاربين المغاربة حيث دمروا الجسور على وادي المخازن ليقطعوا خط الرجوع على البرتغاليين و انتهت المعركة لصالح المغاربة بالرغم من وفاة سلطانهم عبد الملك اثناء المعركة و نجح اخوه احمد المنصور في إخفاء الخبر حتى انتهت المعركة و قتل ملك البرتغال دون سبستيان و حليفه المتوكل و غرق معظم الجيش البرتغالي في مياه النهر التي ارتفعت بسبب المد .

نتائج المعركة:

- تعد من اهم المعارك في تاريخ المغرب شبهها المغاربة بمعركة بدر وقد تركت لأحمد المنصور الذي بويغ غداة هذه المعركة رصيذا ماديا ومعنويا ضخما جعل منه واحد من أشهر سلاطين المغرب

- حطمت البرتغال وتركها فريسة سهلة امام فليب الثاني ملك اسبانيا الذي نجح الى ضمها بعد عامين سنة 1580م

- بدا ملوك اروبا ينظرون الى المغرب كدولة كبرى وصاروا يخطبون وده ويحسبون له حسابا في خططهم الدبلوماسية

- أوقف هذا النصر الضخم حملة عثمانية ضد المغرب أعدها العليح علي بحجة ان عبد الملك لم يفي بعهوده للعثمانيين وبدلا من الحملة ارسل وفدا لتهنئة احمد المنصور بهذا النصر العظيم